الخطاب الإسلامي المعاصر بين الأطروحات الوعظية النظرية والمعالجات الفكرية العملية

د/ فؤاد عبده الحاج البعداني

أستاذ الفكر الإسلامي المساعد – كلية الآداب – جامعة إب

الملخص :

تناول البحث إحدى إشكاليات الخطاب الإسلامي المعاصر التي تشير إلى اختلال توازنه من خلال عرض بعض حملته لمبادئ الإسلام وقيمه وتناولاتهم الدعوية والإصلاحية، وأطروحاتهم المتصلة بالقضايا والمستجدات المعاصرة، واقتصر البحث هنا على محور واحد من محاور هذا الاختلال، يدور حول اختلال التوازن بين الأطروحات الوعظية النظرية، والمعالجات الفكرية العملية، والذي يبرز من خلال مظاهر عدة، لعل أبرزها مايأتي :

أولاً: افتقاد التوازن بين الخطاب الوعظي الإيماني، والخطاب الفكري العقلي.

ثانياً: افتقاد التوازن بين الخطاب الحماسي الانفعالي، والخطاب العقلاني الموضوعي الناضج والمتزن.

ثالثاً: افتقاد التوازن بين تشخيص الواقع ونقد الفساد، وتقديم الحلول وعرض المعالجات العملية.

رابعاً: افتقاد التوازن بين عرض الأخطار والتحديات وكشف المؤامرات، وكيفية مواجهتها والتعامل معها.

خامساً: افتقاد التوازن بين خطاب الجهاد القتالي وخطاب الإعداد والجهاد الشامل.

وعليه فقد هدف البحث إلى الوقوف على هذا الاختلال مؤكدا على ضرورة التوازن الذي يضفي على الخطاب قوةً وتأثيراً، مسترشداً بمنهجية الخطاب الإسلامي القرآني والنبوي مميزاً بين أصل الخطاب الإسلامي في مبادئه وتعاليمه وقيمه وبين الخطاب الإسلامي المنسوب إلى حملته ومتصدريه والمتعلق بمناهجهم وأساليبهم في البلاغ والتنزيل والتوعية الإسلامية كون هذا من النقد المطلوب والتقويم اللازم؛ لترشيد مسيرة الخطاب الإسلامي المعاصر.

مقدمة البحث

الحمد لله الذي خلق الإنسان وأكرمه بالإسلام وعلمه البيان وكلفه بحمل الأمانة والدعوة، والصلاة والسلام على رسول الهداية ومبلغ الرسالة وحامل الدعوة رسول الله إلى الناس أجمعين محمد بن عبد الله وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار وسلم تسليماً. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣) وبعد :

فإن الخطاب الإسلامي المعاصر اليوم قد تطور تطوراً كبيراً وانتقل نقلة نوعية وأصبح خطاباً مسموعاً في آفاق الأرض وتعددت مناهجه وتطورت وسائله وارتقت أساليبه إلا أنه في بعض جوانبه لم يصل بعد إلى حد النضوج ولم يخلص من بعض جوانب القصور وصور الاختلال التي تؤثر سلباً على فاعليته وتأثيره والتي تقع من بعض الغيورين المتحمسين إما بغير قصد أو بالوقوع تحت أسر بعض المؤثرات الاجتماعية والسياسية والدعوية والتربوية.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

إذا كنا اليوم في واقعنا الإسلامي المعاصر بحاجة ماسة لإجراء عملية نقد وتقويم لمسيرة الفكر والعمل الإسلامي في سبيل تصويب المناهج الفكرية الاجتهادية الموجودة في الساحة وتصحيح بعض الرؤى القاصرة والأفهام المغلوطة وإزالة اللبس الحاصل حول بعض المفاهيم والمسائل المتصلة بالفكر الإسلامي وترشيد مسيرة الصحوة الإسلامية وتسديد الكثير من الخطوات والإجراءات المتصلة بالعمل الدعوي وترسيخ القيم الإسلامية في مختلف مجالات الحياة ؛ فإن الخطاب الإسلامي المعاصر يأتي في مقدمة ما ينبغي الالتفات إليه من قبل العلماء والمفكرين والمثقفين والباحثين والمهتمين بالشأن الإسلامي في إطار تقويمه وتسديده وتوجيهه ومعالجة اختلالاته وإصلاح مابه من قصور وسد ثغراته والارتقاء به حتى يتوافق مع المنهجية الإسلامية والخطاب القرآني والنبوي ويتواكب مع مستجدات العصر ومتغيراته ويصل إلى درجة النضج التي تؤهله لتأدية رسالة الإسلام والإسهام في البناء والإصلاح والتغيير بدور فاعل ومؤثر .

ومما لاشك فيه أننا اليوم في ساحتنا الإسلامية المعاصرة نعاني من أزمة فكرية شملت مختلف الجوانب والمجالات وانعكست آثارها سلباً على مفاهيمنا الثقافية وفتاوانا الفقهية وقيمنا الاجتماعية وأساليبنا التربوية ومواقفنا السياسية ومناهجنا التعليمية وأوضاعنا الاقتصادية وعلاقاتنا الدولية وطرائقنا الدعوية وخطاباتنا الإسلامية وروابطنا الأخوية وكل شيءٍ في حياتنا اليومية، والخطاب الإسلامي المعاصر يشكل أحد جوانب هذه الأزمة الفكرية التي تمر بها أمتنا العربية والإسلامية إذ (ما اتفقت كلمة مثقفي الأمة في عصرنا على شيءٍ مثل اتفاقها على أن الأمة العربية والإسلامية في سائر شعوبها وفي مقدمتها الشعب العربي تعيش أزمة فكرية تتجلى في شكل غياب ثقافي

وتخلف علمياً وكسوف حضارياً وتتجسد في عجز الخطاب الفكري المعاصر عن إيصال مضمون الخطاب الإسلامي السليم ومحتواه قرآناً وسنةً وشريعةً وأخلاقاً وإن اختلفوا في تحديد الأسباب ووسائل العلاج).[١]

ويبدو لي أن الكثير من مظاهر الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأوساط الإسلامية المعاصرة إنما ترجع في بعض أسبابها إلى اختلال الخطاب الإسلامي ليس في قيمه ومكوناته بل في مناهجه وأساليب حملته وقدرتهم على تنزيله إلى الواقع مما انعكس سلباً على الأمة المسلمة ومستقبلها ودورها الحضاري. ذلك أن(الغياب الحضاري أو الأزمة الحضارية التي حالت دون توسيع رقعة تأثير الخطاب الإسلامي وأفقدته واقعيته ليست بسبب فقر في القيم التي أكملها الله وتعهد بحفظها على مر الأزمنة وإنما السبب في العجز عن حسن التعامل مع منظومة القيم الإسلامية وتسخيرها للإنتاج الفكري الرابط بينها وبين أهدافها والمُنزّل على الواقع الإنساني عبر خطاب سلس ومتفتح على الكون يدوي صداه في عالم الأفكار مستصحباً الرؤية القرآنية ومالكاً لقدرات العطاء المتجدد المجرد عن حدود الزمان والمكان لرسم الحياة البشرية وتقديم المرجع والزاد لحل مشاكل الإنسانية).[٢]

والخطاب الإسلامي يمتلك مجموعة متكاملة من منظومة المبادئ والقيم والتوجيهات اللازمة لبناء مجتمع متميز وإقامة حضارة إنسانية راشدة لو أتقن حاملوه استلهامها وأجادوا تنزيلها تنزيلاً سليماً وتمكنوا من توظيفها توظيفاً صحيحاً سواءً على المستوى الداخلي للأمة أم على المستوى الخارجي العالمي وهذا ما يفتقده أي خطاب آخر.

وعليه .. فإن (المشكلة إذن في أدوات التوصيل وكيفيات التعامل .. المشكلة في عدم تربية العقل الذي نيط به الاجتهاد والتنزيل على الواقع بحسب ظروف الزمان والمكان .. وكم نحن بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى أن نعترف بفشلنا أو بفشل أدواتنا في التعامل مع قيمنا في المجالات الفكرية والفقهية والتربوية والثقافية والواقع شاهد إدانة ونعيد النظر بهذه الأدوات التي لا قدسية لها ونفتح الباب على مصراعيه للاجتهاد الفكري والحوار والمناقشة).[٣]

وبناءً على ما سبق: أصبح من الضروري اليوم إجراء عملية مراجعة وتقويم للخطاب الإسلامي دون أي حرج، بعيداً عن الخلط بين ما هو من ثوابت الإسلام وقطعيات النصوص وقيم الدين الخالدة وما هو من الرؤى والأفكار والأساليب والاجتهادات المتعلقة بتنزيل الخطاب الإسلامي وتوجيهاته، إذ لا ضير من ذلك إذا ما استوعبنا أن لا عصمة لخطابٍ بشريٍ يستلهم الرؤية الإسلامية مادام النقد هنا إنما هو للمناهج والأفهام البشرية وأساليب من يحملون الخطاب الإسلامي، ويجهدون في أبلاغ دعوة الله للناس أجمعين .

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تقديم رؤية اجتهادية تكميلية، لمجموعة الدراسات والرؤى والأطروحات الفكرية المتعلقة بنقد الخطاب الإسلامي المعاصر وتقويمه سعياً في تجديده وتطويره وسد ثغراته والارتقاء به، لاسيما أن البعض يرى أن(من بشائر الخير وبصائر الحق للمستقبل أن يبدأ التفكير في إخضاع الخطاب الإسلامي المعاصر للدرس والفحص والاختبار والتقويم والمراجعة والنقد وبدء مرحلة التفكير الاستراتيجي - إن صح التعبير - الذي يدرس الإمكانات المتاحة والظروف والمجالات المحيطة والحالات والمشكلات المطروحة والعواقب والتداعيات المترتبة والأبعاد القريبة والنتائج البعيدة والاحتمالات المتوقعة والتجارب المماثلة واستشراف التاريخ مصدر الفقه الحضاري الحقيقي أو المصدر التطبيقي لفقه السنن الفعالة في الأنفس والآفاق).[٤]

ومن خلال تتبعي لتناولات الخطاب الإسلامي نقداً وتقويماً وتوجيهاً وتجديداً من قبل بعض المفكرين والعلماء والباحثين الإسلاميين والمهتمين بالشأن الإسلامي إجمالاً لاحظت أن بعض الثغرات قد أهملت ولم تأخذ نصيباً وافراً من الدراسة والاهتمام لا سيما وأنها تترك ثلمات في الخطاب الإسلامي وتُظهره بشكل مختل وتقلل من فرص نجاحه وتأثيره داخلياً وخارجياً؛ مما حفَّزني للوقوف عند بعضها مما ظهر لي منها حسب فهمي والمساهمة بجهد المقل برؤية نقدية توجيهية متواضعة عسى أن يكتب الله تعالى لها السداد وتضيف جديداً نافعاً إلى رصيد إثراء مناهج الخطاب الإسلامي المعاصر وأساليبه.

وبعد طول نظر وتتبع لمسيرة الخطاب الإسلامي لبعض المعاصرين واستعراض لجوانب الضعف والقصور والاختلال لفت نظري اختلال الخطاب وضعف توازنه بل وغيابه أحياناً، في إطار عرضه وطرحه لكثير من القضايا الإسلامية ومنهجه في تنزيل توجيهات الإسلام وقيمه في مختلف المجالات على واقع الناس اليوم .

ويبدو لي أن هذه الملاحظة لم تحض بالاهتمام المطلوب وليس لها إلا حضور باهت في بعض الكتابات والأطروحات المتعلقة بمعالجة إشكاليات الخطاب الإسلامي عبر بعض الإشارات السريعة واللفتات العابرة حول بعض الجزئيات المتفرقة المتصلة بالملاحظة موضوع البحث .

وعليه .. فإن هذا البحث يسعى إلى سد ثغرة والوقوف عند إشكالية من إشكاليات الخطاب الإسلامي وتقديم رؤية تجديدية من قبل أحد المهتمين والمعايشين للعمل الإسلامي من داخل أوساطه، وكونه يهدف إلى تبصير حملة الخطاب الإسلامي إلى بعض العيوب والسلبيات ويرشدهم إلى المنهجية الإسلامية القائمة على التوازن مؤكداً على أهميته وضرورته لخلق خطاب إسلامي متكامل وفاعل وناضج .

ومسألة التوازن عموماً مسألة مطلوبة كونها من السمات البارزة في المنهج الإسلامي بمختلف جوانبه ومصاحبة لعموم مناهجه وهذا يتطلب أن تنعكس بوضوح على الخطاب الإسلامي إذ أن التوازن سمة مقاربة للوسطية التي

هي من أبرز سمات الإسلام وخصائصه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً . . ﴾ (البقرة:١٤٣): فهو توازن في العقيدة وتوازن في العبادات وتوازن في التشريع وتوازن في المنهجية التربوية وتوازن في المعاملات الاقتصادية وتوازن في العلاقات الاجتماعية وتوازن في المنهجية السياسية وتوازن في القيم السلوكية، وتوازن في المبادئ الخلقية، وتوازن في المنهجية الدعوية. ومثلما التوازن هو في الإسلام كله فينبغي أن ينعكس كذلك على الخطاب الذي يحمله ويدعو إليه، حتى يتمثله تمثلاً حقيقياً ويخدمه بطريقة مثلى.

منهج البحث:

وقد اعتمدت في هذا البحث على التتبع والرصد والتأمل المتأني لمناهج حملة الخطاب الإسلامي المعاصر وكيفية تنزيلهم للقيم الإسلامية وأساليبهم في التعامل مع بعض المفاهيم المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وخطابهم المتصل بمعالجة القضايا والأحداث والمشكلات المستجدة، مشيراً إلى صور القصور التي يختل فيها التوازن مسترشداً بالمنهجية الإسلامية إجمالاً والخطاب القرآني المتوازن في جميع اتجاهاته، مبتعداً عن الإشارات المباشرة لأفراد معينين أو جماعات أو هيئات أو جهات معينة إلا ما ندر إذ ليس القصد هو التجريح أو التشهير بمدرسة دعوية أو أحد ما بل القصد هو ترشيد الخطاب الإسلامي بعمومه لاسيما أن إشكالية غياب التوازن يشترك فيها أغلب حملة الخطاب الإسلامي بمختلف مدارسهم وتوجهاتهم ليس بمستوى واحد، بل بدرجات متفاوتة وما قد يغيب توازنه عند طرف قد يتوفر عند غيره .

حدود البحث:

للموضوع محاور متعددة لا يمكن تضمينها كلها في بحث واحد وعليه فسوف يقتصر البحث هنا على محور واحد من محاور اختلال توازن الخطاب الإسلامي المعاصر على أن يتم الوقوف على محاور أخرى في أبحاث قادمة تعقب هذا البحث بإذن الله.

ومحور هذا البحث ينحصر في اختلال التوازن بين الأطروحات الوعظية النظرية والمعالجات الفكرية العملية، ذلك أن الخطاب الإسلامي المعاصر ينصرف كثيراً إلى الأطروحات النظرية الوعظية والحماسية، ويهمل ما يترتب عليها من معالجات فكرية لازمة، كما هو الخطاب الإسلامي في منهجه القرآني والنبوي.

والخطاب الإسلامي المعاصر الذي يحاول هذا البحث لفت الأنظار إلى ضرورة توازنه والتحذير من الإخلال به عندما يفتقد التوازن يشتمل على جميع وسائله ومناهجه، واجتهاداته المتعلقة بتنزيله على الواقع إذ لا يقتصر على خطبة الجمعة فقط، كما قد يظن البعض بل يشتمل على جميع الآليات المعاصرة، ابتداءً بالموعظة وخطبة الجمعة ثم المحاضرة والندوة والمقالة والكتابة والحديث العام والحوار والنقاش والنصيحة والدرس والمقابلة سواءً تم ذلك

بواسطة المسجد أو القاعةأو الصحيفةأ أو المجلـةأ أو الميـدان العـام أو الكتابـةأ أو الإذاعـةأ أو الشريـط الكاسـيتأ أو الشريط المصورأ أو التلفاز، أو مواقع الانترنت، أو غير ذلك .

مصطلح البحث :

وأرى لزاماً عليَّ في مستهل هذا البحثأ بيان المعاني المقصودة من مصطلح الخطاب الإسـلامي المعـاصر وحـدوده؛ حتى تتضح الصورةأ وتتحدد المعالم والحدود التي يرمي إليها هذا البحثأ بعيداً عن تداخل المصـطلحاتأ والتبـاس الأفهامأ أو تحميل ما ورد في البحث غير ما يعنيه .

فالخطاب لغة على وزن فعالأ من خاطب، ومصدره خطاباً وهو الكـلام. وخاطبـه بـالكلام مخاطبـة وخطابـا. و" خطب " على المنبر خُطبة بضم الخاء وخطابة.[٥] وخطب الناسأ وفـيهمأ وعلـيهم. خطابـةً وخُطبـةٍ: ألقـي علـيهم خطبة، وخاطبه مخاطبةأ وخطاباً: كالمه وحادثه. وخاطبه: وجه إليه كلاماً. ويقـال: خاطبـه في الأمـر: حدثـه بشـأنه.

والخطاب: الكلام . وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (ص: من الآية٢٣)

والخطابة عند المنطقيين: قياس مؤلف من المظنونات أو المقبولات. والخطبة: الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعاً من الناس لإقناعهم.[٦]

والخطاب اصطلاحاً: (رسالة ذات هدف ودلالةأ وهو كلامأ منطوقاً أو مكتوبـاً يمثل وجهة نظر محـددة مـن الجهـة التي توجه " الخطاب "أ ويفترض فيه التأثير في السامع أو القارئأ مع الأخذ بعين الاعتبـار الظـروف والملابسـات التي صيغ فيها " الخطاب " بدلالة الزمان والمكان).[٧]

والخطاب الإسلامي هناأ ليس هو الإسلام بنصوص القرآن الكريم والسنة النبويةأ ولا هـو ثوابتـه المقطـوع بهـاأ ولا أحكامه المنصوص عليها ولا هو أي شيءٍ من مجمل ما أتى به الإسلام من تعاليم وقيمأ بل هو فقط خطاب بعـض المسلمين من العلماء والمفكرين والمثقفين والدعاةأ مستلهمين الإسلامأ حاملين لرسالتهأ مؤدين واجبهم نحـو دعوتـهأ جاهدين في سبيل نشر الوعي بالإسلام وتعبيد الناس بهأ من زمن الرسولﷺ وحتى يومنا هذا.

والخطاب الإسلامي على هذاأ (إنما هو خطاب الإسلاميينأ في ضوء الثوابت في التعبير عن الرسالة التي يوجهونهـا إلى الآخرين في شأن من الشؤون، أو مجموعة من القضايا العامةأ في زمن معين. وهو خطـاب للجميـع يأخـذ بعـين الاعتبار كل فئات المجتمع واهتماماتهأ فيخاطب كل فئة بما يمكنها من فهم الخطاب والاستفادة منه).[٨]

وهذا يعني أن الخطاب الإسلامي هو الفكر والطريقـة والوسـيلة والاجتهـاد البشـري القابـل للخطـأ والصـوابأ والقابل للتعدد والتنوعأ والتغيير والتبديلأ ولا يملك أي عصمة أو قداسة مما يملكها الإسلام المعصوم. والارتبـاط وثيق بين الخطاب والإسلامأ من حيث وصف الخطاب بكونه إسلامي. (فالخطاب هو الجانب المتغـيرأ والإسـلامي

هو الجانب الثابت، وينبغي أن لا ينفصل المتغير عن الثابت كما لا ينبغي أن لا يفتقد الثابت إلى المتغير. فالثابت يعطي المتغير عنصر النظام الذي يحفظه من الفوضى والانفلات والمتغير يعطي الثابت عنصر المرونة والحركة الذي يحفظه من التوقف والجمود).[٩]

ولا يمكن عدّ أي خطاب أنه إسلامي إن لم ينبثق عن الرؤية الإسلامية ويحمل التصورات الإسلامية لمختلف مجالات الحياة. كما لا يعد أي خطاب أنه إسلامي إن اصطدم بأي ثابتٍ من ثوابت الإسلام. لذا فإن (الإسلامي هو المحدد والضابط لما هو التجديد ولما هو الخطاب. بمعنى ألا يقود التجديد إلى خطاب غير إسلامي أو لا يتوافق مع الإسلام، وهذا هو المعيار الرئيسي والثابت في تحديد واختيار المنهج. كما أن الخطاب المستهدف في عملية التجديد هو خطاب يتصل بمرجعية الإسلام).[١٠]

أما كونه معاصراً فله معنيان، المعنى الأول من المعاصرة أي العصر وأصل الكلمة عصر. قال ابن فارس: (العين والصاد والراء أصول ثلاثة صحيحة فالأول: دهر وحين..)[١١] وهو أشهرها وما يهمّنا من المصطلح. فالعصر ـ هو الدهر والجمع أعصار وعُصُور وأعصُر وعصر.[١٢].

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالعصر بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر ١ـ٢). والعصر ـ يطلق على الزمان حيث (ينُسب إلى ملك أو دولة أو إلى تطورات طبيعية أو اجتماعية. يقال : عصر ـ الدولة العباسية وعصر ـ هارون الرشيد والعصر الحجري ويقال في التاريخ: العصر القديم والعصر المتوسط والعصر الحديث).[١٣]

وفي هذا البحث يراد بالمعاصر أي العصر الذي نعيش فيه ونعاصره. وبهذا التحديد تخرج العصور السابقة عن إطار هذا البحث .

المبحث الأول : التوازن بين الخطاب الوعظي والخطاب الفكري :

المتتبع للخطاب القرآني يلمس بوضوح مدى توازنه بين الجانب الوعظي والجانب الفكري إذ لا يجد تركيزاً لجانب دون الآخر أو تغليب لأحدهما على الآخر بل مثلما اهتم بوعظ الإنسان وترسيخ الإيمان بالله في نفسه وروحه وتذكيره بمصيره المحتوم وطبيعة الحياة الدنيا وما أعدّه الله لعباده المؤمنين في الآخرة من نعيم في الجنة أو جحيم في النار، كذلك اهتم الخطاب القرآني بالجانب الفكري وخاطب عقل الإنسان وفكره وحاوره حواراً عقلياً ومنطقياً حول كثير من القضايا الكبرى والمسائل المهمة ابتداءً من دعوة الإنسان إلى التفكر والتفكير الإيجابي الذي يعزز الإيمان بالله وانتهاءً بالدعوة إلى التدبر في حال الأمم السابقة والأحداث التي مرت بها وما آل إليه مصيرها وأخذ العظة والعبرة منها واستكشاف أسباب نهوض الأمم وسقوطها حضارياً .

كما أن التوازن في الخطاب القرآني هنا يلحظ في آن واحد وحول مسألة واحدة إذ أن الوعظ يُستشف من خطاب

فكرياً وتُستنبط اللفتات الفكرية من الخطاب الوعظي. وهكذا كذلك كان خطابهﷺ.

ولكن يُلاحظ اليوم على الخطاب الإسلامي المعاصر افتقاد هذا التوازن عند بعض حامليه إذ تغيب عن خطابهم هذه السمة المهمة والمتميزة في الخطاب الإسلامي الأصيل فيميل بعضهم إلى تغليب الخطاب الوعظي في مجمل أطروحاتهم الدعوية ويهملون الخطاب الفكري بل قد يغيب عنهم تماماً ويركزون دائماً بمختلف وسائلهم الدعوية- ابتداءً بخطبة الجمعة وانتهاءً ببرامج القناة الفضائية- على الجانب الوعظي المتصل بالمسائل العقدية والإيمانية والروحية ثم المبادئ الخلقية والقيم السلوكية والتحذير من الرذائل والحث على الفضائل والزهد بالدنيا والانصراف عنها والتعلق بالآخرة وما عند الله وما أعده لعباده الصالحين ويتوقف خطابهم عند هذا الحد.

ولا مشكلة هنا إذ أن هذا الخطاب مطلوب وله أهميته ودوره المؤثر بيد أن المشكلة تكمن في أنهم يتوقفون عند هذا الحد ولا يكادون يتجاوزن هذه المسائل إلى غيرها واعتمادهم على أسلوب وعظي سطحي بالاقتصار على سرد الأدلة والشواهد من الكتاب والسنة بعيداً عن إعمال العقل فيها لفهمها وتحليلها واستجلاء ما تحمله من مفاهيم وما ترمي إليه من غايات .

وهؤلاء بخطابهم هذا ربما ينجحوا إلى حد كبير في تربية أرواحٍ مؤمنة وصقل نفوس سوية وغرس قيم إسلامية وتوجيه سلوك المجتمعات المسلمة وخطابهم هذا قد يُغذي أرواحاً لكنه لا يُغذي عقولاً وقد يبني إيماناً لكنه لا يبني فكراً؛ ذلك أنهم يقدمون موعظة باردة خالية من الطرح الفكري الذي يغرس الموعظة في النفس والقلب والعقل فترسخ ويدوم أثرها أما الموعظة المجردة فتأثيرها سرعان ما يتلاشى .

وبالمقابل نجد بعض حملة الخطاب الإسلامي من المثقفين الإسلاميين يوغلون في الخطاب الفكري ويسرفون فيه حتى يكاد يبدو خطاباً جافاً لا روح فيه ومبتوت الصلة بقيم الإسلام الروحية والإيمانية والتربوية وهذا إخلالٌ كبير يوازي الإخلال السابق إذ يفقد هذا الخطاب توازنه كسابقه .

إني أعجب من مفكرٍ أو باحثٍ أو مثقف إسلامي يتحدث أو يُلقى خطاباً حول إحدى المسائل الإسلامية لا يكاد يتلفظ بآية قرآنية واحدة أو حديث نبوي صحيح ويكتب عشرات الصفحات لا تجد فيها لفتةٌ إيمانية واحدة، أو إشارة وعظية تلامس شغاف القلب .

ولكن هذا لا يعني التعسف في الخطاب أو رفض الخطاب المتخصص إذ لا ضير من خطاب وعظي يتقنه أهله وخطاب فكري يتقنه رواده لكن المطلوب هنا هو التكامل بين الخطابين والتوازن في عرضهما بمختلف الوسائل مع ضرورة غمس الخطاب الفكري بالروح الإيمانية وإشباع الخطاب الوعظي الروحي بالمفاهيم الفكرية ذلك أن إضفاء البعد الفكري على الخطاب الوعظي يزيده قوة وتأثيراً كما أن إضفاء البعد الإيماني على الخطاب الفكري

يزيده رصانة وعمقاً.

وكما أن مجال الوعظ خصيب، فكذلك مجال الفكر أكثر خصوبة والربط بينهما والتكامل بينهما؛ لابد سيخلق خطاباً ناضجاً ومتوازناً يؤدي دوره في تفتيح الأذهان وتنقيح الأفكار وزيادة الإيمان وغرس القيم وشحذ الهمم وتنمية الوعي الشامل وتغذية الروح ورفد الأمة بالمبادئ الإسلامية والمفاهيم الفكرية ويعمل (على إعادة تكوين العقل المسلم وتشكيل بنيته وفقاً للتصور الإسلامي السليم للكون والحياة والإنسان ذلك التصور التوحيدي القويم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والمتدبر لسنن الكون وقوانين الوجود المدرك لغايات الخلق الواعي لأبعاد الكون والحياة وعي تمكين واستفادة وعي الراسخ بالبعد الإنساني بكل أنواعه وشروط التمكين والاستخلاف المطلوب).[١٤]

إن متغيرات الواقع ومستجدات العصر وطبيعة المعركة الحضارية التي يخوضها المسلمون اليوم والحالة المتردية للأمة المسلمة وتفاقم أزماتها المتنوعة تقتضي خطاباً إسلامياً متوازناً وراشداً يعالج الروح، ويخاطب الفكر ومؤهل (أن يقول ما عنده استناداً إلى رؤيته الإسلامية وقدرته على معالجة المفردات من المنظور العقدي الذي ينفتح على العالم فلا يكاد يدع صغيرة ولا كبيرة إلا وشكل إزاءها الموقف الفكري الذي يضعها في مكانها الصحيح من مسلسل الصراع الأبدي بين الحق والباطل والوجود والضياع من أجل أن يتبين المسلم والإنسان عموماً موطئ قدميه في دنيا مكتظة لا تكف عن التمخض وفي عالم لاهث لا تدعه المتغيرات المتلاحقة يجد نفسه أو يستقر على حاله).[١٥]

ويمكن لحملة الخطاب الإسلامي بمختلف اهتماماتهم الرجوع إلى القرآن الكريم واستلهام منهجه وأسلوبه الخطابي في غرس المفاهيم وتنمية القيم ومدى توازنه في مختلف صوره ومعالجاته وأطروحاته ذلك أن القرآن الكريم يقدم الموعظة بخطاب فكري يحاور العقل، و يدغدغ العاطفة ويخاطب الفكر، بما يحرك الوجدان الإيماني ويرسخ المفاهيم العقدية والإيمانية إذ لا تجد فيه الإسراف في الوعظ دون فكر كما لا تجد فيه الخطاب الفكري جافاً لا روح فيه.

فدعوة الإنسان إلى التفكر في مخلوقات الله وعجيب صنعه وإبداعه وإتقانه للإنسان والحياة والكون كله هي دعوة للعقل ومخاطبة للفكر وبالوقت نفسه فإنها تقدم موعظة روحية تزيد الإنسان إيماناً بالله وقرباً منه وشعوراً بعظمته وتعديلاً لسلوكه وتصوراته إذ (أن التفكر وما يصاحبه من ذكر هو العمود الفقري لتغيير تصور المسلم عن نفسه واستعداده بعد ذلك لتغيير سلوكه وعاداته فبدون هذا التغيير لا يمكن تعديل السلوك والعادات. إذن التفكير هو مفتاح كل خير لأنه يصبغ جميع النشاطات المعرفية للمؤمن بذكر الله تعالى والتعرف على آلائه ونعمه).[١٦]

وبهذا يصبح التفكر فكراً يتحول إلى عبادة ينتج صلة روحية بالله وتذكراً دائماً له وخشية راسخة في القلب،

لأن(مثل هذا التفكر يشمل الجانب الفكري والعاطفي والانفعالي والإدراكي للمؤمن؛ أي أنه يشمل جميع أنشطته النفسية والمعرفية والروحية. ومن الصعب أن يتصور الإنسان ذاكراً لله قليل التفكر في مخلوقاته؛ أو أن يتصور متفكراً في خلق الله لا يعد من الذاكرين)(١٧) ذلك أن المؤمن كلما نظر إلى ما حوله من خلق الله وآلائه؛ كلما غاص عميقاً في دقة هذا الإبداع الإلهي؛ فيزداد إيماناً وخشيةً وتعظيماً لربه؛ وما هذا إلا نتيجة للخطاب القرآني الذي جعل من الفكر والتفكر طريقاً إلى البناء الإيماني والروحي؛ وجذب الروح المؤمنة إلى التعبد لله بإعمال الفكر والتفكر؛ ليصبح التفكر عبادة.

والشواهد القرآنية التي تجمع بين الخطاب الفكري والوعظي بشكل متوازن؛ كثيرة جداً؛ منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(آل عمران:١٩٠ـ١٩١) وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾(الغاشية: ١٧ـ ٢١) وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾(النحل:٦٥ـ٦٦) وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون١٢ـ١٤)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾(البقرة: من الآية٢٢. -٢١٩) وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سباء:٤٦).

وهكذا.. فإن القرآن الكريم يخاطب عقل الإنسان ويحاوره فكرياً خلال تقديمه للموعظة، لتدخل من العقل بدايةً، ثم تستقر في القلب نهايةً،فتتحقق النتيجة المرجوة، فالتذكير يكون للعقل والقلب معاً في خطاب واحد، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ* أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ* أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ* لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ* إِنَّا لَمُغْرَمُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ* لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا

أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ* نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ* فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٦٢-٧٤).

كما أن خطاب القرآن الكريم القائم على إثبات بعض القضايا الغيبية العقدية كوحدانيته سبحانه وتعالى وقدرته على بعث الإنسان في الآخرة للحساب والعقاب اعتمد على خطاب يحاور العقل، ويحاجج الفكر ويقيم الحجة على الإنسان من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ (يس ٧٧ــ ٨١)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾(المؤمنون: ٨٦ـ ٨٩).

ومثله كذلك كان خطابه ﷺ، في تربيته لأصحابه ودعوته للإسلام، ونشره لقيمه وتوجيهاته يوجه خطاباً فكرياً وعظياً متوازناً إذ كان غالباً ما يوجه موعظته بمقدمة فكرية تهيئ العقول وتفتح الأذهان لاستيعاب المفهوم الإيماني وتغيير السلوك. من ذلك قوله ﷺ وهو يتحدث عن أهمية الصلاة، فيما رواه أبو هريرة ﷺ :(أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل منه كل يوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء. قال: كذلك الصلوات الخمس ...)[١٨]

وهكذا أيضاً في موعظته ﷺ للشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا وحواره معه إذ وعظه وأقنعه عبر حوار عقلي فكري تمكن فيه ﷺ من غرس كره الزنا في عقله وقلبه ونفسه في آنٍ واحد. فقد روي عن أبي أمامة قال: (أن فتىً شاباً أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه،وقالوا: مَهْ، مَهْ. فقال:ادنه، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال:أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال:والناس لا يحبونه لأمهاتهم. قال:أتحبه لأبنتك؟ قال:لا والله، يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال:ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال:أتحبه لأختك؟ قال:لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال:أفتحبه لعمتك؟ قال:لا والله، جعلني الله فداءك.قال:ولا الناس يحبونه لعماتهم.قال: أفتحبه لخالتك؟ قال:لا والله، جعلني الله فداءك. قال:ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم أغفر ذنبه، وطّهر قلبه، وحصّن فرجه، فلم يكن ذلك الفتى يلفت إلى شيء).[١٩]

المبحث الثاني:التوازن بين الخطاب الحماسي الانفعالي، والخطاب العقلاني والموضوعي الناضج:

كثيراً ما نجد بعض أصحاب الخطاب الإسلامي المعاصر، وقد غلب على خطابهم الحماس الكبير، والانفعال الزائد، والصوت المرتفع، والكلمات المتوترة، والعبارات المتشنجة، حتى لا تكاد تسمع منهم إلا صراخاً مدوياً، وكلمات متداخلة، وعبارات مبعثره، ودعوات مرتجله، وأملهم بهذا هو إثارة الحمية في النفوس، وتأجيج الغيرة على الإسلام في قلوب المسلمين، وبث الحماسة للانتصار للإسلام، وشحذ الهمم لخدمة قضايا الإسلام.

ومثل هذا الخطاب الحماسي الانفعالي، غالباً ما يتسم بالتهور والانسياق وراء العاطفة، وقد تنقصه الدقة والموضوعية، وتغيب عنه الرؤى والمفاهيم الفكرية الناضجة، التي تتولد عنها الحلول والمعالجات لما يتم عرضه من مشكلات وقضايا. ومع أن هذا الخطاب قد يهيج الجماهير، ويحرك عواطفها، ويشدها نحوه بقوة، وتقع تحت تأثيره سريعاً، لكن هذا كله في وقته وحينه فقط، ثم سرعان ما يتبدد وتجف آثاره وتخف وتذهب من النفوس .

وأحيانا نجد هذا الخطاب الحماسي الانفعالي، ينساق وراء التهويل والمبالغات، وتضخيم الأحداث الصغيرة، وترديد الأخبار غير المؤكدة، وتحميل المواقف ما لا تحتمله، لاسيما إن تم هذا الخطاب بشكل مباشر أمام الجمهور.

وبالمقابل نجد بعض أصحاب الخطاب الإسلامي المعاصر، يسيرون على الخط المعاكس، بداية من حيث الأسلوب، ثم من حيث التعامل مع الأوضاع والمواقف والأحداث، إذ يغلب على خطابهم السكينة الزائدة، والهدوء المميت للخطاب، والبرود القاتل لأي أثر له، والتعامل مع القضايا الساخنة، والأحداث الطارئة، والمواقف الخطيرة، ببساطة ولامبالاة، بدعوى الاتزان والعقلانية والموضوعية، فيقللون من حجم المؤامرات، ويُهونون من طبيعة الأخطار والتحديات، ويستهينون بما قد يترتب على المواقف والأحداث الطارئة، ظناً منهم بأن هذه هي الموضوعية والعقلانية.

وهذا الخطاب المفرط في الهدوء والاتزان، قد يقتل الحماسة في النفوس، ويُغيَّب القضايا الكبرى، ويصرف الناس عن التفاعل مع الأحداث المحيطة بهم، ويؤدي إلى غفلتهم عن المؤامرات التي تحاك ضدهم.

ومثلما أن الخطاب الحماسي الانفعالي إفراطاً، فإن الخطاب الساكن البارد تفريطاً، وكليهما لا يقدمان خطاباً متوازنا. وإذا كان موضوع الخطاب يضيع وسط الانفعالات والتشنجات والضجيج؛ فإنه كذلك يذوب مع خطاب بارد متهاون وسلبي.

وليس المقصود هنا، رفض أي خطاب منهما بشكل تام، بل المطلوب هو الجمع بينهما بشكل متوازن ومتكامل، وتقديم الخطاب المناسب للموضوع المناسب،في المكان المناسب، وبالأسلوب المناسب، بما يحقق الغاية منه. والمرفوض فقط هو الخطاب الحماسي الانفعالي الذي يخاطب العاطفة، ولا يخاطب العقل، ومثله الخطاب الموغل في العقلانية، الذي يستبعد العاطفة تماماً من دائرته.

والخطاب الفكري العقلاني الموضوعي الناضج، أشد طلباً من الخطاب الحماسي الانفعالي، ذلك أن مجرد إثارة حماسة المخاطبين وتحريك عواطفهم، لا يُرَّسخ شيئاً من مفاهيم موضوع الخطاب، وقد يكون مطلوباً في بعض الحالات حسب طبيعة الوقت، إذا أُشبع بعقلانية وموضوعية متوازنة، وقدم فكرة واضحة. لكن هذا لا يعني أن يتعامل الخطاب الإسلامي بأسلوب عاطفي حماسي، دون أن يقدم رؤية فكرية تستلهمها العقول، وتعالج المشكلات، وتطرح الحلول للخروج من الأزمات.

والشيء المؤسف أن الخطاب الحماسي الانفعالي المتهور، قد يسهم في بعض حالاته في تأجيج مظاهر الأزمة الفكرية المعاصرة بمختلف جوانبها. وليس ببعيد القول(أن الكثير ممن ارتقى منابر النخبة في التوجيه والقيادة، وبما يمتلك من الحنجرة السميكة، والصوت المرتفع، والقدرة على إثارة الحماس، وإتقان الخطاب، أو الخطب القائمة على إثارة المشاعر والحماس، على حساب إذكاء التفكير، كان سبباً في الأزمات المتلاحقة وليس وسيلة للحلول الغائبة حتى ولو ادَّعاها).(٢٠)

ومن المؤسف أيضاً أن تصبح النظرة في الأوساط الإسلامية الشعبية والجماهير اليوم، أن من يرفع صوته، ويشتد انفعاله، ويتمكن من إثارة المشاعر وتهييج الجماهير، هو بالفعل الذي يحمل خطاباً إسلامياً مؤثراً وفاعلاً، وهو من أصحاب القدرة على إدارة الجماهير. وتنمو شعبية صاحب هذا الخطاب بشكل كبير، وقد يحقق نجاحاً كبيراً في أي انتخابات يخوضها، كالانتخابات البرلمانية في بعض البلدان العربية والإسلامية، التي فاز فيها- بفارق كبير- بعض حملة الخطاب من الدعاة الإسلاميين. وقد يتصدر هؤلاء المواقع التي غيرهم أولى منهم بها وأكثر قدرة وخبرة وأهلية.

والشيء اللافت.. أنه لو تقدم للجماهير مفكر حصيف وخطيب متحمس، لقدمت الجماهير الخطيب على المفكر. لذا قد تكون المشكلة اليوم (التوهم بأن النخبة أو أهل الحل والعقد هم أهل الأصوات والضجيج ومنابر الخطابة، وأن القدرة على إثارة الحماس وملء النفس بالانفعال هي مؤهلات النخبة والريادة، بعيداً عن أهل الخبرة والاختصاص في ما يتطلبه بناء الحياة بكل جوانبها، حتى ولو ادعى الخطباء المعرفة بكل شيء، والإفتاء بكل شيء، ولا نغالي إذا قلنا: بأننا هزمنا بذهنية بعض الخطباء، وانتصر أعداؤنا بالخبراء، ذلك أن بروز الخطباء الذين لا خبرة لهم إلا بالأصوات، وغياب الفقهاء والخبراء وأهل الاختصاص هو الذي يُمثّل إشكالية النهوض).(٢١)

ويبدو لي أننا بحاجة لفهم الفرق بين الخطيب والواعظ، وبين المفكر والفقيه المجتهد، والدور المنوط بكل واحد منهم، ذلك أن الخطيب الواعظ معول عليه: إصلاح النفوس، وتقويم السلوك والأخلاق، وتنمية الحس الإيماني.

بينما يُعَوِّل على المفكر الفقيه: تشخيص الواقع، وتقديم الحلول والمعالجات، وتبصير الأمة بطريقها نحو النهوض وتحقيق الاستخلاف الحضاري.

وليس كل خطيب هو مفكر، كما أن ليس كل مفكر هو بالضرورة خطيب وواعظ، ودور المفكر أكثر طلباً وضرورة لمجتمعنا وأمتنا اليوم، نظراً لكثرة الخطباء وقلة المفكرين، لاسيما إذا أدركنا أن (المفكر ليس وصَّافاً يصف الواقع، إنه إنسان فعال يبني، وليس واعظاً يثير الوجدان، بل عقلاً يستشرف آفاق المستقبل ويرسم الطريق إليه، أو يكتفي بوضع علامات تشير إلى الطريق...والطريق لا يرسمه فرد واحد وإنما هو جهود متنوعة ومتكاملة ومتتابعة).[٢٢]

وهذا لا يعني انتقاص دور الواعظ المتحمس، بل دوره مطلوب إلى جوار دور المفكر الواعظ، فكليهما دعاة، ويتحملان سوياً مهمة البلاغ المبين، والبناء المتين للمجتمع المسلم، لكن مطلوب من الواعظ أن ينتقل من مجرد الوصف وإثارة الوجدان وبث الحماسة في نفوس الجماهير إلى رفدها بالوعي والمفاهيم السليمة والرؤى الناضجة، التي تسهم في إعادة صياغة الشخصية المسلمة، وتشكيل العقل المسلم بما يتوافق والمنهجية الإسلامية ويحقق مقاصدها الشرعية.

ولن ينجح الخطاب الحماسي الانفعالي العاطفي الرائج اليوم في الأوساط الإسلامية، مهما كانت قدرته الخطابية متفوقة، أن ينير للأمة المسلمة طريقها، أو أن يقدم لها حلولاً، أو أن يخطو بها نحو النهوض الحضاري خطوة واحدة، مهما كانت أعداد المقتنعين به والمدافعين عنه، إن ظل على اختلاله هذا، ولم يستوعب ضرورة التوازن، وأهمية العمق في الطرح، والتفكير الاستراتيجي، والتطلع المستقبلي.

ومما يزيد الأمر سوءاً، أن (هناك وهمٌ بأن حقن الأمة بشحنات من الحماس والخطب، ومزيد من التوثب الروحي، والتذكير بالأمجاد المشرقة للواقع التاريخي كفيل بانطلاق الأمة من جديد نحو حياة إسلامية راغدة، وحضارة إسلامية جديدة، ووحدة إسلامية شاملة، دون بناء عالم فكريّ ومفاهيمي ومعرفي وثقافي صحيح، يوجه حركة الأمة، ويرسي قواعد سيرها ونهجها، وفي هذا الكثير من المجازفة، وفقدان الرؤية الصائبة).[٢٣]

وعليه: فنحن اليوم بحاجة ماسة لتوازن الخطاب الإسلامي، والانتقال من الحماسة الفارغة إلى الحماسة البانية، ومن الانفعال المتشنج إلى الانفعال المنتج، ومن ملامسة العاطفة فحسب إلى محاورة العقل، وتوليد الرؤى الناضجة المشحونة بصادق العاطفة وحماسة التغير، (بعيداً عن المواقف والتصرفات الانفعالية الخطابية، التي تُحرك العاطفة ولا ترشد العقل، وتعتمد التهويل والمبالغة، ولا تخدم القضية الإسلامية، بل على العكس قد تساهم مساهمة سلبية غير مقصودة في تخلف المسلمين).[٢٤]

وهذا بالتأكيد يتطلب إعادة النظر في الثقافة التي يتربى عليها حملة الخطاب الإسلامي المعاصر، والبحث عن الثقافة الأصيلة، التي تبني وعياً حقيقياً، وفهماً سليماً، وترفد صاحبها بالمفاهيم التي تؤهله لتقديم خطاب إسلامي راشد، وعدم التأثر بثقافة الشارع والانسياق وراءها، ذلك أنها (ثقافة حماسية غير متزنة، تتكاثر فيها المواقف والأفكار الارتجالية .. ولهذا فهي عادة ما تخاطب السوق العام لكسبه وتحريك مشاعره، وتنأى بنفسها عن مخاطبة الحكماء وذوي الاختصاص).[٢٥]

كما أن هذه الثقافة تقدم خطاباً شعبياً لا يتوافق مع مختلف فئات المجتمع، وإن لقي تفاعلاً آنياً وظاهرياً من الجمهور العام، الذين تستقطبهم الأصوات المرتفعة، والدغدغة العاطفية، لاسيما (وقد درج بعض من يتحملون أمانة الدعوة على استخدام أسلوب الصراخ أو الإثارة وتهييج الجماهير Agitation، والتركيز على أوتار العاطفة، وهذا أسلوب وإن حقق بعض النجاح لدى العوام من الجماهير التي لم تنل حضاً من الثقافة والتعليم، فإنه لا يصلح لمخاطبة المثقفين والمفكرين، لأن هؤلاء يستقبلون الفكرة عبر عقولهم المتفتحة، وملكاتهم الناضجة، ونظراتهم الصائبة. كما أن هذا الأسلوب ـ وإن حقق بعض أغراضه لدى جماهير المسلمين الذين يتوفر لديهم الاستعداد لقبول الدعوة ـ لا يصلح لمخاطبة غير المسلمين الذين لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ).[٢٦]

والوقائع تؤكد أن الخطاب الحماسي الانفعالي العاطفي لا يحقق أي نتيجة مرجوة عند ما يصبح أصلاً وطريقة دائمة، بعكس ما يمكن أن يحققه الخطاب الموضوعي العقلاني المتوازن، الذي لا يخلو من حماسة معقولة تزيده قوةً وتأثيراً، وهذا وذاك ملحوظ عند بعض خطباء الجمعة. فالخطباء (المتحمسون يبالغون في حماسهم، وينفعلون عندما لايطلب الانفعال، ويطيلون عندما لا يستحق موضوعهم الإطالة، ويعتقدون أن الخطابة هي شحن الجمهور بشحنات الحماس، فيصولون ويجولون في شعور المستمع دون أن يبلغوا عقله، بينما الحقيقة أن الحماس وسيلة وليس غاية، وأن المشاعر تأتي وتذهب، بينما الأفكار هي الأبقى ما دامت تجد مكانها في العقل السليم).[٢٧]

وبالمقابل فإن الغياب الكامل للحماسة ومخاطبة العاطفة، لا يقل اختلالاً عن المبالغة بها، إذ أن الخطاب الموضوعي العقلاني الناضج الواعي لا يعني بحال نفي الحماسة المعقولة عنه، بل التوازن بين الأسلوبين هو الخطاب المطلوب. فأولئك (الخطباء الهادئون يبالغون في هدوئهم، ويلقون خطبتهم وكأنهم يلقون محاضرة " أكاديمية " على صفوة من المثقفين، فتصل المعاني إلى المستمع جافةً باردة، وقد يطيل الخطيب في مواضيع بعيدة عن فهم الجمهور، فيدب الملل والضجر في نفوس بعض المصلين، وقد يتسرب النعاس إلى آخرين، فتفقد الخطبة أثرها).[٢٨] وهكذا الأمر كذلك عند أصحاب الخطاب الهادئ من الوعاظ والمحاضرين والمحاورين والمتحدثين في مختلف المناسبات.

ويمكن الرجوع إلى الخطاب القرآني، لاكتشاف مدى توازنه في طرحه لكثير من القضايا، بين الانفعال العاطفي والحوار المنطقي الموضوعي العقلاني، والشواهد كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٦)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ* اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(الحديد:١٦-١٧).

كما أن الشواهد كثيرة في القصص القرآني، مثل عرض القرآن الكريم لقصة مؤمن آل فرعون، وفيها قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس :٢٠-٢٧).

ويمكن الوقوف عند هذا الخطاب القرآني، من خلال تتبع دعوات الأنبياء والمرسلين لأقوامهم وحواراتهم معهم، منها خطاب نبي الله إبراهيم عليه السلام العاطفي والعقلاني مع والده، في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(مريم:٤١-٤٥). وكذلك حوار نبي الله لوط عليه السلام مع قومه بحضور الملائكة، وفيه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾(الحجر: ٦٧-٧١).

وهكذا أيضاً كان خطاب النبي ﷺ متوازناً بين الخطاب العاطفي الانفعالي والخطاب العقلاني الفكري، بعيداً عن الإفراط أو التفريط، من ذلك حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، عندما جاء إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول الله ﷺ وهو محمّر وجهه، فقال:(كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون).[٢٩]

وبناءً على ما سبق يمكن الخلوص إلى أن(العقل هو الأداة الوحيدة لهضم الأفكار والمعاني، لذلك على الخطيب أن يحترم عقول مستمعيه، وأن يبني أفكاره واستنتاجاته ومعانيه على أسس منطقية مقنعة، وألا يفرض آراءه ومواقفه على جمهوره دون أن يقدم المبررات الشرعية والمنطقية لها، فعندما يحارب الخطيب ظاهرة ما، يجب ألا يلجأ إلى السباب والشتائم في معالجة هذه الظاهرة، وأن يتجنب شحن الجمهور عاطفياً ضدها دون أن يقنعهم بها بشكل منطقي واضح نزيه، فالعواطف عامل متغير يتأثر بالظروف المحيطة، أما الإقناع المنطقي فهو عامل ثابت يستمد ثباته من الحقائق التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان).[٣]

المبحث الثالث: التوازن بين تشخيص الواقع ونقد فساده، وتقديم الحلول ووضع المعالجات العملية:

الأصل في التعامل مع المشكلات والعلل والأخطاء والمفاسد والأوضاع المتردية إجمالاً، هو القيام بداية بعملية تشخيص دقيق للحالة، وفق دراسة نقدية واعية وشاملة، تبحث عن الأسباب، وتتَّبع المسببات، وتقف عند المقدمات الخاطئة، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تقديم الحلول، ووضع المعالجات، ووصف الدواء الناجع، واتخاذ خطوات إجرائية عملية سليمة وممكنة التنفيذ. وهذا هو التوازن الذي يؤدي بالضرورة إلى تعميق التفكير الاستراتيجي، وترسيخ الوعي، وتنمية القدرة على مواجهة المواقف، والتعامل مع المشكلات، والتفكير بالحلول، والخروج من الأزمات.

لكن.. يلاحظ على الخطاب الإسلامي المعاصر، غياب أو ضعف هذه المنهجية عند بعض متصدريه، إذ يغيب التوازن بين التشخيص والمعالجات، وغالباً ما يكون الاقتصار فقط على تشخيص الواقع الإسلامي ونقده، واستعراض أحوال المسلمين وأوضاعهم في كل مكان، ومظاهر الأزمة التي تمر بها أمتنا المسلمة في مختلف المجالات، وتعداد صور الضعف والفساد والانحراف في الجوانب العُقدية، والاجتماعية، والتربوية، والسياسية، والاقتصادية، والإعلامية، والتعليمة، وغيرها، وندب واقع الأمة اليوم وحال أوطانها، وشجب أحوال المسلمين والبكاء على معاناتهم، وشتم الأنظمة والحكام، والتحسر على الماضي التليد، وترديد الأحلام والأمنيات، والدعاء لله سبحانه وتعالى بتغيير الحال، وكف البلاء، وتخليص الأمة مما هي فيه.

ويقف أصحاب هذا الخطاب عند هذا الحد، وكأن دورهم قد انتهى بمجرد التشخيص والنقد والتنبيه، دون الانتقال إلى ما بعد ذلك من خطوات لازمة، غافلين عن قصور خطابهم هذا وجزئيته وضعف فاعليته. إذ ليس هذا وحده هو الدور المنوط بهم والمعول عليهم، بل لابد بعد ذلك من الانتقال إلى الرؤى الفكرية الرصينة، والإسهام

في تقديم الحلول ووضع المعالجات للمشكلات ومظاهر الفساد والضعف والانحراف في جميع الجوانب، والإرشاد إلى الخطوات الإجرائية المطلوبة للخروج من أي أزمة تمر بالأمة، ومعالجة أي مشكلة تم التطرق إليها، أوعلى الأقل الإسهام في التخفيف من حدة الأزمات والمشكلات والمفاسد، وتمكين المخاطبين من القدرة على مواجهتها والتعامل معها، واستيعاب مسبباتها، والحذر من الاستمرار فيما يؤدي إلى تفاقمها وتراكمها.

وربما أن الخطاب الإسلامي اليوم قد نجح إلى حد كبير في تشخيص أحوال الأمة، ونقد واقعها، واكتشاف أزماتها المتعددة، وقدم جهداً كبيراً في هذا الاتجاه، لكنه يتوقف كثيراً عند هذا الحد، ولا يغوص في أعماقها ليُحلِّل الأسباب، ويكتشف المسببات، ويقدم الحلول، مكتفياً بالإحساس بوجود المشكلة وأعراضها، عن التفكير بما وراء ذلك. (أما معالجة الأزمة الفكرية بدراستها ومعرفة أسبابها، والإفادة من التجربة الميدانية بفقه الميدان الذي وفرته المواجهة، ومن ثم إقامة البناء المعرفي والثقافي على ضوء ذلك، فلم يعطها الخطاب الإسلامي ـ إلى وقت قريب ـ ما تستحقه من العناية والاهتمام،وما تستلزمه من الدرس والتحليل).[٣١]

إن اقتصار الخطاب الإسلامي على النقد والتشخيص السريع، والسرد الواسع لمظاهر الانحراف والفساد والضعف، دون تقديم الحلول والمعالجات الناجعة، يلحق به ضرراً كبيراً، ويفقده فاعليته وتأثيره، (لأن تكوُّن الخطاب الإسلامي من مجموعة توقفات وأفكار غير محسومة بفعل التراكم الكبير للانتقادات والتشكيكات، يُحوِّله إلى خطابٍ هزيل ومتوقف، بعكس ما لو كان متكوِّناً من إجاباتٍ واضحةٍ ، ونظرياتٍ محسومة، فإنه آنئذ سيكون خطاباً متيناً ومتحركاً بل ومُحركاَ).[٣٢]

وهذا لا يعني بأي حال رفض خطاب النقد والتقويم، بل هو خطاب مطلوب ولا بد منه لمواجهة مختلف الاختلالات، إذ لا تتضح الأخطاء إلا بالنقد، ولا تُعالج إلا من خلاله بداية، فهو منهج يُبصِّر ويُرشد إلى مواطن الخلل وأسبابه. والتوازن بين التشخيص والنقد ثم تقديم الحلول الفاصلة الملائمة هو الخطاب المطلوب اليوم، (ذلك أن الاستطاعة العلمية إنما تكون في مستوى القدرة على صناعة الأجوبة للإشكالات المثارة . والنقد وإن كان مطلوباً إلى حدٍ ما، إلا أنه لا يُعبِّر بالضرورة عن قدرة علمية مستقرة، لذا ينبغي أن يكون محطة سريعة وقنطرة يُتوصل من خلالها إلى الحلول العلمية).[٣٣]

والتوازن بين النقد وتقديم الحل هو الخطاب المطلوب اليوم، للتغلب على مشكلات الواقع الإسلامي، بمعنى الانتقال من إتقان الوصف إلى إتقان البناء، وإلا فإنه سيظل خطاباً قاصراً وعاجزاً، إن لم يتتبع طرق الخلاص، وآليات التغيير، ويجيد الانتقال من الشعور بالمعاناة ولفت الأنظار إلى العلل فحسب، إلى التبصير بالمعافاة منها والتغلب عليها. إي (الانتقال من خطاب التنظير المجرد إلى خطاب يقدم الآليات الموصلة إلى الأهداف المرجوة،

ذلك أن مشكلة كم غير قليل من أرشيف خطابنا الإسلامي، أنه تنظيري بحت لا يقدم الحلول والمعالجات، قدر ما يُثقِّف بالمشكلة تاركاً للآخرين أو للزمن حلها).[٣٤]

إذن.. التوازن هنا هو المنهج السليم لإنتاج خطاب إسلامي ناضج، يؤدي رسالته، ويقوم بواجبه في إصلاح الواقع الإسلامي، وتوجيه مسار المجتمعات المسلمة، وإحداث التغيير المنشود .

ويمكن استشفاف الخطاب القرآني المتوازن بين التشخيص والنقد وتقديم الحلول والمعالجات، من خلال تعامله مع كثير من المواقف والأحداث التي واجهت المجتمع المسلم، والمشكلات والإخفاقات التي تعرض لها في عهد الرسول ﷺ، لاسيما في الحروب:

فبعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد، نزل الخطاب القرآني يُشخِّص وينقد ويحلل، ثم يقف على النتائج، ويرشد إلى المواقف المطلوبة والمعالجات اللازمة، في مجموعة كبيرة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٠-١٤٢)، ويضيف سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٥٢)، وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٦٥-١٦٦). وكذلك بعد غزوة حنين،وعلى نفس السياق، قال تعالى : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة:٢٥) .

المبحث الرابع : التوازن بين عرض الأخطاء والتحديات وكشف المؤامرات، وكيفية مواجهتها والتعامل معها :

لقد نجح الخطاب الإسلامي المعاصر نجاحاً كبيراً في عرض التحديات والأخطار المحدِّقة بالأمة المسلمة، في مختلف المجالات والميادين، وأبلى بلاءً حسناً في كشف المؤامرات التي تُحاك ضد هذه الأمة من قبل أعدائها، حتى

ليكاد يبدو أنه لم يترك أي خطر دون أن يقف عنده ويحذر منه، ولم يدع مؤامرة دون أن يُجلي حقيقتها، ويكشف عن خلفيتها ودوافعها وأهدافها، ويحذر من مخاطرها على الدين والمجتمع.

ومع تنوع اتجاهات الخطاب الإسلامي وتعدد وسائله، فإنه بمختلف اتجاهاته ووسائله قد اشترك في هذه المهمة على حدٍ سواء، وكل طرفٍ ركز على مجال تخصصه وميدان اهتمامه، مع اتجاهات ذات اهتمامات شمولية جهدت في حصر الأخطار والتحديات وتتبع المؤامرات المُحدِّقة بحياتنا الإسلامية بمختلف جوانبها، ابتداءً بالأخطار والمؤامرات التي تستهدف عقيدة الإسلام، ثم ما يستهدف منها الحياة الاجتماعية، وما يتعرض له الجانب التربوي والتعليمي، وما يحوم منها حول قيم وأخلاق المجتمع المسلم، وما يرمي منها إلى محق الفكر وغزو الثقافة الإسلامية، وما أصاب منها أحوالنا السياسية وأوضاعنا الاقتصادية، وانتهاءً بالأخطار والمؤامرات العسكرية التي تتطلع إلى استعمار البلدان العربية والإسلامية، واحتلال أراضيها، واستنزاف ثرواتها، وتقسيم أوطانها، وزرع الفتن بين أبنائها، بهدف أضعافها وإحكام السيطرة عليها، بالإضافة إلى التحديات الحضارية المتنوعة التي تواجه أمتنا المسلمة.

وتحفل المكتبة العربية والإسلامية المعاصرة بمختلف مجالاتها ووسائلها، بكم هائل من الكتب المطبوعة، والمقالات والتحقيقات الصحفية، والأشرطة السمعية والمرئية، والبرامج التلفزيونية، والمواقع الالكترونية، والتي قدمت الشيء الكثير، في سبيل فضح المؤامرات الخارجية، والتحذير من الأخطار المتعددة، ورفدت الأمة بالتفصيلات المتنوعة لمجمل المخططات الاستعمارية الصليبية، والأطماع التوسعية الصهيونية، وجرائم الإبادة الشيوعية، وما يُدَّبره أعداء هذه الأمة لها بالليل والنهار، من مكر وكيد، مع الإشارات المفصلة إلى حجم التحديات الخارجية في مختلف المجالات.

وتمكنت الهيئات والمنظمات والجماعات والجمعيات والمراكز الإسلامية، من تتبع كل جديد يستهدف الأمة أو يُشَّكل خطراً عليها وتحدياً لها، ابتداءً بالاستشراق والتنصير، وانتهاء بالمخاطر الإعلامية عبر البث الفضائي والإنترنت، والاستهداف الثقافي من خلال العولمة الثقافية.

وعلى المنوال نفسه تعلو صرخات الدعاة والخطباء والوعاظ مدويةً، في التحذير من المخاطر والمؤامرات والتحديات، وكل ما يعترض أمتنا المسلمة اليوم، والأمر كذلك، والتحذيرات صادقة، والنداءات مخلصة للدين والأمة، وهذا دورٌ مطلوب ولا اعترض عليه، لاسيما في عصرنا هذا.

بيد أن المشكلة تكمن في توقف الخطاب الإسلامي المعاصر كثيراً عند هذا الدور فحسب، وعدم الانتقال إلى الخطوة اللاحقة واللازمة، والمتمثلة في الإرشاد إلى كيفية مواجهة المخاطر والتحديات والمؤامرات وسبل التعامل

معها، وآلية التغلب عليها، وإمكان تجاوز مضارها وآثارها السلبية، وتوظيف آثارها الإيجابية وثمارها النافعة، وتبصير المجتمع بخطوات إجرائية عملية، على طريق الدور المطلوب إزاء كل ما يتعرض له، والتحفز للمقاومة الواعية، وعدم الانهزام أمام أي خطر داخلي أو خارجي، والتصدي ببصيرة لكل مؤامرة كيدية، والتمكن من مواجهة التحدي بتحدٍ مماثل، والانتقال من التأثر إلى التأثير، ومن الضعف إلى القوة، ومن الانهزام إلى الاستعلاء، ومن الاستسلام إلى الاستعداد، ومن الشكوى إلى العمل، ومن الندب والعويل إلى البناء والاتقاء.

ولابد من الوعي بأن مجرد بث الغيرة على الدين، والوعي بالمخاطر والمؤامرات، واستيعاب التحديات، والحماسة ضد المتآمرين من مختلف أعداء الأمة المسلمة، ومع أهميتها جميعها إزاء ذلك، لكنها تظل جهوداً قاصرة، وآثارها محدودة، إن لم تتبعها إرشادات عملية واضحة، تنبثق من خطابٍ واعٍ، يستند إلى ثقافةٍ مبصرة، ورؤيةٍ عميقة، تقود المجتمع المسلم من مجرد الانفعال النظري إلى الفعل العملي، ومن شتم الأعداء إلى مقارعتهم بالحجة والبينة، ومواجهتهم بما يدفع مؤامراتهم، ويُحصَّن مجتمعنا المسلم من مكائدهم.

إن هذا الخطاب غير المتوازن، يؤدي إلى إحباط المجتمع، وشل فاعليته، وصرف نظره عن المواجهة، إلى الاكتفاء بالندب والعويل، والرفض لكل ما جاء به غيرنا، دون الانطلاق للمواجهة والمحاكاة المكافئة. فقد (اكتفينا نحن مسلمي اليوم بمواقف الرفض والإدانة للاستشراق والتنصير.. اكتفينا بالانتصار والانحياز العاطفي للإسلام، وخطبنا كثيراً، وانفعلنا أكثر، ولم تعل إلا أصواتنا، ولا نزال نحذر من الغارة على العالم الإسلامي، القادمة من الشرق والغرب، ومن المخططات الصهيونية الماكرة، والصليبية الحاقدة، لقد أصبح ذلك يُشَكل عندنا مناخاً ثقافياً، وإرثاً فكرياً، وطريقاً أمثل للوصول إلى المناصب والزعامات، دون أن تكون عندنا القدرة على إنضاج بحث ذي قيمة في الموضوع، أو إيجاد خطةٍ أو وسيلة مدروسة في المواجهة، أو محاورة جادة لتقديم البديل الصحيح للسيل الفكري والثقافي، والإعلامي، والأكاديمي، القادم من هناك).[٣٥]

إن حجم المؤامرات والأخطار والتحديات التي تواجهها أمتنا اليوم، تتطلب من المهتمين بالخطاب الإسلامي، المزيد من التفكير الاستراتيجي، والرؤية العميقة، والموقف الحكيم، والفكر الجاد، والارتقاء بالخطاب الإسلامي، والحفاظ على توازنه، ورفد المجتمع بثقافة ناضجة، وإرشاده إلى المواجهة الإيجابية، وإيجاد البدائل الموازية، بما يحفظ للأمة ثوابتها وقيمها وأخلاقها وثقافتها الإسلامية. (ولا يكفي في ذلك الندب والبكاء على الحال، والحماس الآني، واتهام الآخر، والإلقاء بالتبعة على عظم التحديات وخطورتها، كما لا يكفي الانفعال وردود الأفعال واعتماد عامل الإثارة، ومحاولة المعالجة بمزيد من الخطب ورفع الأصوات وسماكة الحناجر، والهروب من قضية إلى أخرى، دون إنضاج موضوع أو دراسته بجرأة وشجاعة، وتقويمه لبيان موطن الخلل فيه، وعوامل النجاح).[٣٦]

وإذا كان البعض يؤكد أننا اليوم نعيش عصر الصراع الحضاري أو صدام الحضارات؛ فإن المعركة الحضارية تقتضي خطاباً إسلامياً حضارياً ومتوازناً، بين التوعية الثقافية والانطلاقة الحضارية، ذلك أن طبيعة المؤامرات العالمية، والتحديات الحضارية، تحتاج إلى خطاب معاصر، يُولِّد إرادات فاعلة، وينتج عزمات ماضية، ويشحذ همم متطلعة، لخوض معركة التحدي والمواجهة، انتصاراً للإسلام، وخدمةً للأمة، ونهضةً للأوطان، ومُضِّياً نحو بناء المستقبل الإسلامي المنشود.

ولن تجدي في مواجهة نتاج الآخرين وقدراتهم وخططهم، مجرد خطابات متشنجة، وتحذيرات واسعة، وصرخات مدوية، وإحصاءات شاملة، للمؤامرات والمخاطر والتحديات العالمية، ذلك أن(خطط الذكاء والدهاء العالمية، التي يرسمها أذكياء عالميون، من أمثال مخترعي الذرة ومخترعي الآلات الصناعية الإلكترونية المتقدمة جداً، لا تقاوم إلا بمثلها، فلا ينفع معها الارتجال، ولا التحركات الانفعالية الغبية، مهما كانت صادقة الإيمان حسنة النية).[٣٧]

وليس هذا فحسب.. بل مطلوب من الخطاب الإسلامي المعاصر، الاستفادة من المؤامرات والأخطار والتحديات التي تواجه أمتنا،وذلك باستغلالها استغلالاً إيجابياً، وتوظيفها لصالح بناء العقلية المسلمة، وتفعيل رد الفعل عند المجتمع المسلم وتوجيهه توجيهاً صحيحاً، نحو تحقيق الاستقلالية والاعتماد على الذات، بما ينسجم مع البيئة الإسلامية، في سبيل الانتقال من دائرة الاستهداف إلى دائرة الفعل والتأثير والمواجهة.

وهذا كله لن يتحقق إلا إذا تخلص الخطاب الإسلامي من اختلاله، وتوازن بين استعراض التحديات والمخاطر والمؤامرات، والإرشاد إلى كيفية مواجهتها والتعامل معها والحصانة من أضرارها، والانتقال إلى الفعل الموازي لها .

ويمكن الوقوف عند بعض شواهد الخطاب القرآني في التعامل مع الأخطار والتحديات والمؤامرات التي تعرض لها المجتمع المسلم في عهد النبي ﷺ، وكيف أنه كان يجمع بتوازن واضح بين عرضها وكشفها، ثم التعليق عليها بما يبصِّر المسلمين بالموقف الصحيح وبكيفية مواجهتها والتعامل معها.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك: حديث الإفك بحق أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فقد نزل القرآن الكريم في الحادثة بقوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ *لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:١١ـ١٤).

والأمر كذلك في الخطاب القرآني بخصوص مسجد ضرار، إذ قال تعالى فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة:١٠٧ـ١٠٨).

المبحث الخامس : التوازن بين خطاب الجهاد القتالي وخطاب الإعداد والجهاد الشامل :

يعد الجهاد في الإسلام من أبرز الفرائض التي كتبها الله على عباده المسلمين، وأخذ نصيباً وافراً من الاهتمام والحث عليه في الخطاب القرآني، وهو كذلك في الخطاب النبوي للرسول ﷺ، وله فضله وأجره، ذلك أنه من أثقل الوجبات على المسلمين، ومن قتل مجاهداً في سبيل الله فهو من أكرم الشهداء عند الله.

وقد تعرض مفهوم الجهاد في الإسلام – وما يزال يتعرض– لعدة محاولات ترمي إلى تشويهه وتحريف معناه وتغيب حقيقته، وشابته كذلك بعض الأفهام الخاطئة والتصورات المغلوطة عند بعض المجموعات الإسلامية، مما أدى إلى ارتكاب بعض الحماقات والأعمال المرفوضة باسم الجهاد في الإسلام، وهو من ذلك براء.

وقد تحمس الخطاب الإسلامي المعاصر لمفهوم الجهاد كثيراً، وتبنَّاه في أطروحاته، ونشر الوعي به والحماسة له في الأوساط الإسلامية، لاسيما في مواطن النزال مع أعداء الإسلام والمسلمين، وفي نصرة قضايا المجتمعات المستضعفة، والحث على التحرر من الاستعمار الصليبي للبلدان العربية والإسلامية، والاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين.

ومع هذا كله.. فإن الخطاب الإسلامي المعاصر، يعاني من اختلال عند بعض حامليه، في إطار تعاملهم مع مفهوم الجهاد، إذ يغيب التوازن والفهم الشامل له في خطابهم، ولا يكادون يذكرون منه إلا جانباً واحداً فقط، وهو الجهاد القتالي، وتغيب عنهم جوانبه الأخرى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى.. ينادون بالجهاد القتالي دون الدعوة إلى الإعداد له، والاستعداد الشامل بتوفير مقوماته وعوامل نجاحه، وهذا إخلال كبير بمفهوم الجهاد.

فمن الجهة لأولى.. كثيراً ما ينصرف الخطاب الإسلامي المعاصر إلى الجهاد القتالي فحسب، وكأنه وحده هو مدلول الجهاد كله الذي تعبدنا الله به، مع أن القتال إنما هو صورة من صور الجهاد بمفهومه الشامل، والذي يشتمل أيضاً على صورٍ أخرى منه، مثل: الجهاد الدعوي والتبليغي، والجهاد الإعلامي، والجهاد التربوي، والجهاد التعليمي، والجهاد المالي، والجهاد الاقتصادي، والجهاد السياسي، والجهاد الثقافي والفكري، وجهاد النفس وتزكيتها.

ولا بد من فهم هذا الشمول للجهاد في الإسلام، وتبني مختلف جوانبه وصوره التي لا تقل أهمية عن القتال؛ من بذلٍ للمال، وبذلٍ لطاقة الفكر في البحث والتأمل النافع، وبذل لقدرات اللسان في البيان المؤثر، لنصرة دين الله وتبليغه للناس، وبذل لقدرات الكتابة والتأليف، وبذل لحركة الجسد والتضحية بالشهوات والملذات والراحة في سبيل خدمة قضية من قضايا الإسلام،(والاجتهاد في إعداد المستطاع من القوى المادية والمعنوية، والخطط اللازمة لذلك، أو المساعدة في عمل يهدف إلى هذه الغاية بأي لون من ألوان المساعدة مع ابتغاء رضوان الله عز وجل).[٣٨]

وفي بعض المواقف والحالات تصبح إحدى صور الجهاد المتنوعة أكثر طلباً وأشد حاجة من القتال، مثل: الجهاد المالي؛ الذي قدمته الآيات القرآنية على الجهاد بالنفس، إلا في موضع واحد فقط، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف:١٠). وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٥). وهكذا الأمر قد يكون كذلك مع بعض صور الجهاد الأخرى.

ولكن مما يؤسف له أن نجد اليوم بعض الخطباء والوعاظ والدعاة المتحمسين، لا يكادون يفهمون من الجهاد إلا القتال، ويغيب عن خطابهم التوازن بينه وبين صوره الأخرى، مكتفين بوعظ الناس به وحثهم عليه نظرياً، دون إرشادهم إلى سبل الإعداد المطلوب له، والتدرج العملي المؤدي إلى التمكن منه والقدرة عليه. وبدون هذا الخطاب الواعي؛ فإن الحث على الجهاد القتالي لن يؤدي دوره المؤثر في المجتمع، إن لم تواكبه الدعوة إلى بقية الجوانب المكملة له . ثم ما قيمة خطاب يحث على القتال في مجتمعات تبخل بالمال، وتبخل بالوقت والجهد، ولا تستوعب شمولية مفهوم العمل لصالح الإسلام، وتهمل الكثير من قيم الإسلام ومبادئه التربوية والاجتماعية والسياسية؟

وعليه فإن التوازن يقتضي أن يجمع الخطاب الإسلامي المعاصر بين جميع صور الجهاد وجوانبه المتنوعة، حتى يكون خطاباً سوياً، وقادراً على البناء والتغيير والإصلاح، والانتصار لقضايا الإسلام والمسلمين.

وهذا لا يعني مطلقاً الانتقاص من الجهاد القتالي أو تغييبه، أو الدعوة إلى التخلي عنه، فله أوقاته ومراحله وضروراته، لكن الدعوة هنا فقط هي إلى التوازن الحكيم، والشمول السليم، والفهم المتكامل لمعنى الجهاد؛ والذي هو(بذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة المجتمع الإسلامي، وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه، وأما غايته فهو إقامة المجتمع الإسلامي، وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة).[٣٩]

أما المراد من الجهاد في سبيل الله، فمن(استعراض النصوص القرآنية المشتملة على مادة " جاهد يجاهد مجاهدة جهاداً " يتبين لنا أن المراد من الجهاد في سبيل الله: أن يبذل المؤمن المسلم في سبيل الله مما يملك من جهد، أو طاقة، أو مال، أو أي شيء ذي نفع، أو ذي تأثير ما، سواءً أكان ذلك من نفسه، أو من ماله، أو من أي شيء يخصه، أو من

أي شيء له عليه سلطة ما. ويكون هذا البذل في سبيل الله حقاً، حتى يكون بهدف نشر دين الله تعالى، والدعوة إليه، وتبليغه للناس، أو تأليف القلوب عليه، أو نصرته وتأييده، أو الدفاع عنه، أو إعلاء كلمة الله في الأرض، أو إقامة شريعة الله ومنهاجه الذي رسمه لعباده وحدَّد حدوده، مع ابتغاء رضوان الله في ذلك).[٤]

ومن الجهة الأخرى، فإن الاختلال في خطاب الجهاد، يبرز أيضاً، بغياب التوازن بين الدعوة إلى القتال، والدعوة إلى الإعداد له، بما يؤدي إلى نجاحه، إذ كيف يمكن أن يقوم جهادٌ قتالي دون استعداد له، بتوفير مقوماته، وتجهيز مستلزماته، وتحقيق غاياته؟!

فالخطاب المنفعل بالدعوة إلى الجهاد القتالي، والنابع من عاطفة أسلامية جياشة، وغيرة على أعراض المسلمين ومقدساتهم، وتطَلع إلى تحقيق انتصارات حاسمه للمسلمين على أعدائهم، وحده هكذا لا يكفي ولا ينفع، إن لم يصاحبه خطاب واعٍ، ودعوة إلى الإعداد والاستعداد والبناء والتجهيز الذي ينبغي أن يسبق القتال، حتى يكون الانتصار ممكناً، وإلا فإنه سيظل خطاباً حماسياً وقتياً لا يترك خلفه أثراً عملياً.

وكثيراً ما يشعر المرء المسلم الغيور على دينه، المستوعب للسنن الإلهية والكونية في الصراع بين الحق والباطل، بالحزن والأسى، عندما لا يسمع إلا خطاباً متشنجاً، بأصوات مدوية، تدعو إلى قتال الأعداء، من اليهود الصهاينة، والنصارى الصليبين، في أوساط مجتمعات عربية إسلامية، ما تزال عالة في أغلب احتياجاتها وشؤونها على أعدائها، لاسيما فيما تأكل وتلبس،ومتطلبات الحياة المعاصرة، بل وفيما تقاتل به. فإذا كانت بعض البلدان العربية والإسلامية قادرة على توفير الكثير من حاجياتها الأساسية من غذاء وكساء، فإن أغلبها عاجزة عن صنع طلقة الرصاص، أو قذيفة المدفع الذي تحارب به ؟! باستثناءات بسيطة ومحدودة لا يعول عليها في نصرة القضايا الإسلامية، أو الجهاد من أجل الإسلام .

إن المعركة اليوم أصبحت معركة حضارية، معركة تقنية صناعية وتكنولوجية متطورة، العصر لم يعد عصر السيف أو البندقية، والأمم الأخرى قد سبقت الأمة المسلمة سبقاً كبيراً، ملكت القوة،، وأصبحت قادرة على صناعة كل متطلباتها، من الكماليات قبل الأساسيات، وتمكنت من المواجهة والتحدي،ومجتمعاتنا العربية والإسلامية مجرد سوق مستهلكه لما تصنعه وتسوقه إلينا، من الإبرة إلى الصاروخ، من الحاسوب إلى الطائرة .

ولم تتمكن القوى الكبرى والأنظمة المتسلطة على شعوب الأرض، من الاستبداد بنا وفرض وصايتها على أنظمتنا، والتحكم بالقرار السياسي والاقتصادي في أوطاننا المسلمة، إلا بسبب قوتها المادية، وقدراتها الصناعية، وتجهيزاتها التقنية، وإعدادها للقوة الشاملة .

وبالوقت نفسه، فإن الأمة المسلمة لن تتخلص من سطوة الدول الكبرى وهيمنتها، وتمثلك قرارها، وتنصر قضاياها، وتخلِّص مقدساتها من الاغتصاب والاحتلال؛ إلا بالإعداد والاستعداد: الإعداد العلمي، والإعداد الصناعي، والإعداد التقني، والإعداد التكنولوجي، والإعداد الزراعي، والإعداد القتالي، والإعداد العسكري، والاستقلال التام عن الحاجة للآخرين، سواءً أكانوا أصدقاءً أم أعداء.

والخطاب الإسلامي المعاصر، مطالب باستيعاب طبيعة المعركة اليوم، وأدواتها ومستلزماتها، بعيداً عن الفهم السطحي، والغيرة الوقتية، والآمال الكاذبة، والتوقعات الخيالية، وتهييج عوام الناس وصغار الشباب باسم الجهاد، وهم لا يملكون شيئاً أعدوه بأنفسهم ليجاهدوا به .

ثم لمَ لا يستلهم هؤلاء بخطابهم قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (لأنفال:٦٠) وغيرها من الآيات القرآنية التي تحث على الإعداد والتجهيز للجهاد ؟!

إذن لا بد من التوازن بين الدعوة إلى الجهاد وغرس الحمية في النفوس المسلمة، وتبصير الأمة بأعدائها، وبمواطن الجهاد اللازمة، وبين الدعوة إلى الإعداد للجهاد، والبناء الشامل، وخوض المعركة الحضارية بوعي وبصيرة، وفق خطوات إجرائية عملية ؛ تؤدي إلى تحقيق القوة الفاعلة، وتوفير العدة اللازمة، بعيداً عن العجلة والتهور والتصرفات الحمقاء باسم الجهاد. وهذا ما ينبغي أن يستوعبه الخطاب الإسلامي المعاصر ويرتكز علية، وإلا فإنه سيظل خطاباً قاصراً ومختلاً، وعاجزاً عن تنزيل قيم الإسلام على الناس، وتحقيق مقاصده وغاياته في حياتهم .

ويوجه أحد علماء المسلمين نداءً لأصحاب الفهم القاصر للجهاد، وحملة الخطاب المتحمس له بدون بصيرة قائلاً : (أيها الإخوة المندفعون المتحمسون الثائرون الغاضبون اللابسون أردية الجهاد، الحاملون باسم عامة المسلمين أسلحة القتال في سبيل الله، دون أن تحققوا في أنفسكم شروط مباشرة القتال، ودون أن تؤدوا واجباته، ودون أن تلتزموا منهج الله القويم، المبيَّن في قرآنه العظيم، وفي تطبيقات رسوله الكريم، وفهمها علماء المسلمين وأئمتهم، لا تفتنوا المسلمين عن دينهم بتصوراتكم الخاطئات، ومساعيكم غير المستكملة لأدواتها وشروطها).[٤١]

ولا فرق هنا بين التصورات الخاطئة والمفاهيم المشوهة لمفهوم الجهاد، وبين إهمال التوعية السليمة به والعرض المتوازن له، فهذا وذاك إخلالٌ؛ يؤدي إلى ارتكاب الحماقات باسمه، وتغييب حقيقته، والإساءة إلى الإسلام والمسلمين.

الخاتمة

النتائج : يمكن الخلوص إلى أبرز ما تضمنه البحث وبعض نتائجه المهمة، والتي يمكن إجمالها فيما يأتي:

١) الخطاب الإسلامي المعاصر بحاجة لمراجعة مستمرة، وتقويم دائم، ومتابعة دقيقة لمسيرته، من أجل الوقوف على هناته، واكتشاف إخفاقاته، والتنبه لسلبياته، والعمل على تسديده وتوجيهه، ومعالجة علله واختلالا ته؛ حتى يصل إلى حالة الرشد والنضج المطلوب، وتتحقق له الفاعلية والقدرة على التأثير،ويتمكن من النجاح في مهمة الإصلاح والتغيير، وقيادة الأمة نحو مستقبل إسلامي أفضل، ونهضةٍ مشرقة وشاملة.

٢) الكثير من مظاهر الأزمة الفكرية المعاصرة في الأوساط الإسلامية المعاصرة، ترجع في بعض أسبابها إلى اختلال الخطاب الإسلامي المعاصر، وافتقاده للتوازن في بعض مناهجه وأساليبه وأطروحاته ومعالجاته، وما ينتج عنها من سلبيات.

٣) مشكلة الخطاب الإسلامي المعاصر لا تكمن في فكره ومفاهيمه وقيمه، ذلك أنه يستند إلى مرجعية إسلامية مستمدة من نصوص الوحي المعصومة، بيد أنها تكمن في منهجية حملته وأساليبهم في التوصيل، وكيفية تنزيلهم لمبادئ الإسلام وقيمه على الواقع وحياة الناس.

٤) لا ضير ولا حرج من إخضاع الخطاب الإسلامي المعاصر لعميلة مراجعة وتقويم، بعيداً عن الخلط بين ما هو من ثوابت الإسلام وقطعيات النصوص وقيم الدين الخالدة، وما هو من الرؤى والاجتهادات البشرية لحاملي الخطاب الإسلامي ومتصدريه، إذ لا عصمة لخطاب بشري يستلهم الرؤية الإسلامية، مادام النقد هنا إنما هو للمناهج والأساليب لا للمضامين والمبادئ.

٥) يفتقد الخطاب الإسلامي المعاصر عند بعض متصدريه، التوازن بين الجانب الوعظي والجانب الفكري، ما بين خطابٍ وعظي سطحيٍ، يقتصر على معالجة القضايا الإيمانية، والأبعاد الروحية، والمسائل التربوية، والتحذير من الرذائل، والحث على الفضائل، عبر سرد الأدلة والشواهد من الكتاب والسنة، بعيداً عن إعمال العقل فيها لفهمها وتحليلها، واستجلاء ما تحمله من مفاهيم، وما ترمي إليه من غايات. وبين خطابٍ فكريٍ جافٍ لا روح فيه، يكاد يبدو مبتور الصلة بقيم الإسلام الإيمانية، وأبعاده الروحية، ومنهجيته التربوية، لا يكاد يستلهم شيئاً من الأدلة والنصوص المعصومة، ما يقوي بها حجته، ويمنحه القدرة على الإقناع والتأثير.

٦) لا ضير من خطاب وعظي يتقنه أهله، وخطاب فكري له رواده، ولكل منهما ضروراته ودواعيه، بيد أن المطلوب هنا هو التكامل بين الخطابين، والتوازن بينهما في خطاب واحد، وغمس الخطاب الفكري بالروح الإيمانية والشواهد الوعظية، وإشباع الخطاب الوعظي الروحي بالمفاهيم الفكرية والمخاطبة العقلية، فهذا يزيدهما قوةً وتأثير .

٧) يختل الخطاب الإسلامي المعاصر، عندما يسرف بعض حملته في الخطاب الحماسي الانفعالي، ظناً منهم أن الخطاب المؤثر في الناس لابد أن تغلب عليه العاطفة الجياشة، والحماسة المفرطة، والانفعال الزائد، والعبارات المتشنجة، والكلمات المتوترة، والصوت المرتفع، والهدير الغاضب. مع أن مثل هذا الخطاب غالباً ما يتسم بالمبالغة والتهويل، والاندفاع والتهور، والانسياق وراء العاطفة الآنية، وتنقصه الدقة والموضوعية، ويبتعد عن التركيز على مواطن العلة والداء، ويعجز عن معالجة المشكلات، وتقديم الرؤى المُبصّرة، والحلول الناجعة للموضوعات المثارة.

٨) ويختل الخطاب الإسلامي المعاصر أيضاً، عندما يدّعي بعض متصدريه، أنهم أصحاب خطاب عقلاني وموضوعي ناضج، فيغلب على خطابهم الهدوء المميت، والبرود الماحق لأي أثر له، ويعرضون القضايا الساخنة، والأحداث الجسيمة، والمواقف الحرجة، ببساطة ولامبالاة، ويقللون من حجم المؤامرات، ويُهوّنون من طبيعة المعركة والتحديات التي تخوضها الأمة، بدعوى الاتزان والموضوعية والعقلانية؛ فيقتلون الحماسة في النفوس، ويصرفون الناس عن التفاعل مع القضايا الكبرى التي تمر بهم ومناصرتها، ويفقد خطابهم قوته وقدرته على التأثير.

٩) إذا كان موضوع الخطاب يضيع وسط الانفعالات والتشنجات والضجيج، فإنه كذلك يذوب مع خطاب بارد سلبي ومتهاون. والمطلوب هو الجمع بين الخطابين في خطاب واحد وبشكلٍ متكاملٍ ومتوازن، وتقديم الخطاب المناسب للموضوع المناسب في المكان المناسب بما يحقق الغاية منه. والخطاب الفكري العقلاني الموضوعي المتزن والناضج، يعد أشد طلباً من خطاب حماسي انفعالي مؤقت.

١٠) ربما أن الخطاب الإسلامي المعاصر، قد نجح إلى حدٍ كبير في تشخيص أحوال الأمة، ونقد واقعها، واكتشاف عللها، والوقوف على أزماتها المتنوعة، وقدم جهداً كبيراً في هذا الاتجاه، لكنه يتوقف كثيراً عند هذا الحد، ولا يغوص في أعماقها، ليحلل الأسباب، ويكتشف المسببات، ويقدم الحلول الناجعة، مكتفياً بالإحساس بوجود المشكلة وأعراضها عن التفكير بما وراء ذلك؛ وهذا مما يفقده فاعليته وقدرته على إحداث التغيير. إذ لابد من التوازن بين التوصيف والمعالجات، والانتقال من إتقان الوصف إلى إتقان العلاج، ومن الشعور بالمعاناة إلى التبصير بالمعافاة منها.

١١) قدم الخطاب الإسلامي المعاصر جهداً كبيراً في عرض الأخطار والتحديات وكشف المؤامرات التي تتعرض لها الأمة، لكنه كثيراً ما يتوقف عند هذا الحد فحسب، دون الانتقال إلى الخطوة اللاحقة اللازمة، والمتمثلة في الإرشاد إلى كيفية مواجهتها، وسبل التعامل معها، وآلية التغلب عليها، وإمكان تجاوز مضارها وآثارها

السلبية، والإفادة منها، وتوظيف آثارها الإيجابية وثمارها النافعة، وتبصير المجتمع والأمة بخطوات إجرائية على طريق الدور المطلوب إزاء كل ما يتعرضان له، والتحفز للمقاومة الواعية، والتصدي ببصيرة لكل مؤامرة، والتمكن من مواجهة أي تحدٍ بتحدٍ مماثل.

١٢) ينحصر الخطاب الإسلامي المعاصر كثيراً في تعاطيه مع مفهوم الجهاد، في الجانب القتالي منه، مهملاً بقية جوانبه وصوره الأخرى والمتعددة، مع الدعوة إليه بشكلٍ سطحي،دون التطرق إلى الإعداد السابق له، والاستعداد الشامل المطلوب، والذي به يمكن أن يؤدي دوره الفاعل في المجتمع.

ختـــاماً:

حسبي أن هذا فهمي وجهدي واجتهادي، وما غلب على ظني أنه صواب، فإن أحسنت فبتوفيقٍ وعونٍ من الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان. والله أسأل أن يتقبل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب لي التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

قائمة الهوامش والمراجع:

١) د. طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي-مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، صادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية، طبعة مكتب المعهد في عمان/ الأردن، ١٤٦١هـ/ ١٩٩٥م، سلسة إسلامية المعرفة(١٠)، ص٣٩.

٢) المصدر السابق، ص٧٩.

٣) عمر عبيد حسنة: من مقدمته لكتاب الأمة رقم(١٠٠): الخطاب التربوي الإسلامي، لـ أ.د.سعيد إسماعيل علي، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولى، ربيع الأول١٤٢٥هـ/ أبريل –مايو٢٠٠٤م، السنة٢٤، ص١٣.

٤) عمر عبيد حسنة: من مقدمته لكتاب الأمة، العدد رقم (٥٦): من مرتكزات الخطاب الدعوي،ص٣٧.

٥) محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، دار إبن كثير؛ دمشق وبيروت، بدون رقم طبعة وتاريخ نشر، مادة خطب، ص١٨٠.

٦) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، صادر عن مجمع اللغة العربية: القاهرة، طبعة دار الدعوة للتأليف والطباعة: استانبول-تركيا، الطبعة الثانية، ربيع الأول١٣٩٢هـ/ مايو١٩٧٢م، مادة خطب، ١/ ٢٤٢-٢٤٣.

٧) أ.د.سعيد إسماعيل علي: الخطاب التربوي الإسلامي، كتاب الأمة، العدد(١٠٠)، ربيع الأول١٤٢٥هـ، ص٢٥.

٨) المصدر السابق، ص٢٦.

٩) زكي الميلاد: لماذا تأخرت مهمة تجديد الخطاب الإسلامي؟" الخطاب الإسلامي والتجديد أطوار وتحولات"، مجلة التسامح، صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان، العدد(٨)، خريف١٢٤٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٠٨.

١٠) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

١١) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي: مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ٤/ ٣٤٠.

١٢) ينظر: الجواهري: الصحاح، مادة عصر، ٢/ ٧٤٨، والفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة عصر، ص٥٦٦، والراغب الأصفهاني: المفردات، ص٣٣٦.

١٣) المعجم الوسيط، مصدر سابق،٢/ ٦٠٤.

١٤) د. طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي، مصدر سابق، ص٩٥.

١٥) د.عماد الدين خليل: رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، كتاب الأمة، العدد(٤٥)، محرم١٤١٦هـ/ مايو١٩٩٥م، السنة١٥، الطبعة الأولى، ص٣٤.

١٦) د. مالك بدري: التفكر من المشاهدة إلى الشهود "دراسة نفسية إسلامية" ، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، سلسلة أبحاث علمية(٣)، ص٣٩.

١٧) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

١٨) الحديث: أخرجه الإمام مسلم في صحيحة.

١٩) الحديث: أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، حديث رقم(٧٨)، ص٢٥٩٤. والبخاري، الأدب، الرفق في الأمر كله.

٢٠) عمر عبيد حسنة: من مقدمته لكتاب الأمة رقم(١٠٠)، مصدر سابق، ص٩.

٢١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٢٢) عبد الحليم أبو شقة: نقد العقل المسلم: الأزمة والمخرج، طبعة دار القلم: الكويت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، نقلاً عن د. أحمد محمد الدغشي: الفكر الإسلامي، دار الكتاب الجامعي: صنعاء، ص١٠٩.

٢٣) د. طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي، مصدر سابق، ص٤٠-٤١.

٢٤) د.عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل المسلم، صادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فرجينيا-الولايات المتحدة، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، سلسة قضايا الفكر الإسلامي(٦)، ص١٤.

٢٥) فيصل العوامي: الخطاب الإسلامي المعاصر: المبنائية والعلاجية، مجلة الكلمة، تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث: بيروت-لبنان، العدد(٢٦)، السنة السابعة، شتاء٢٠٠٠م/ ١٤٢٠هـ، ص١٣٠٠

٢٦) أ.د.محي الدين عبد الحليم: إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية، كتاب الأمة، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بدولة قطر، العدد(٦٤)، ربيع الأول١٤١٩هـ، السنة الثامنة عشر، الطبعة الأولى، ص١٧٣-١٧٤.

٢٧) د. محمد عماد محمد: خطبة الجمعة في العالم الإسلامي" ملاحظات لابد منها" في كتاب الأمة، العدد(٢٨)، مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، رجب١٤١١هـ،ص٦..

٢٨) المصدر السابق، ص٦١.

٢٩) الحديث: أخرجه الأمام البخاري في صحيحة، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم(٣٦١٢)، وفي مواضع أخرى، وفي كتاب بدء الخلق، باب ما لقي النبي(ﷺ) وأصحابه، فتح الباري(٧/ ١٣.).

٣٠) د. محمد عماد محمد: خطبة الجمعة في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص٦٧.

٣١) د. طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي، مصدر سابق،ص٤..

٣٢) فيصل العوامي: الخطاب الإسلامي المعاصر: المبنائية والعلاجية،مصدر سابق، ص١٣١.

٣٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٣٤) عادل القاضي: من مراجعات الخطاب الإسلامي، مجلة الكلمة، تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث: بيروت-لبنان، العدد(٢٧)، السنة السابعة، ربيع٢...م/ ١٤٢١هـ،ص١٣٧.

٣٥) عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا: الولايات المتحدة، والدار العالمية للكتاب الإسلامي: الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(٧)، ص٢..

٣٦) عمر عبيد حسنة: من مقدمته لكتاب الأمة، العدد رقم (٦٤)، إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت، والمتغيرات: لـ د. محي الدين عبد الحليم، ربيع الأول١٤١٩هـ، السنة الثامنة عشرة، ص١٢.

٣٧) عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني: بصائر للمسلم المعاصر، دار القلم: دمشق وبيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٦.

٣٨) المصدر السابق، ص ٣٦٢.

٣٩) د.محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، دار الفكر: بيروت، الطبعة الثامنة،١٤.. ه/ ١٩٨.م،ص١٧..

٤٠) عبد الرحمن الميداني: بصائر، مصدر سابق، ص٣٦..

٤١) المصدر السابق، ص١٧٣.